مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

كيفَ كان يكسب مُشركو القرآنِ رزقهم؟

تأليف:
باتريشيا كرون

ترجمة:
عبد الكريم الوضّاف

2024

www.mominoun.com

- **ترجمة**
- **قسم الدراسات الدينية**
- 16 يناير 2024

جميع الحقوق محفوظة © 2024

كيفَ كان يكسب مُشركو القرآنِ رزقهم؟

تأليف: **باتريشيا كرون**
ترجمة: **عبد الكريم الوضّاف**

مُقدمة المُترجم

صدرت هذا المقالة، والموسومة بـ «How Did the Quranic Pagans Make a Living?»، في مجلة «*Bulletin of the School of Oriental and African Studies*»، في المجلد 68، العدد الثالث، الصادر عام 2005، من الصفحة 387-399، والصادرة عن جامعة لندن University of London، ونشرته مطبوعات جامعة كامبردج Cambridge University Press.

والأستاذة الدكتورة باتريشيا كـرون Patricia Crone، هي عالمة ومؤلفة ومستشرقة ومؤرخة للتأريخ الإسلاميّ. ولدت عام 1945، وتُوفيت بالسرطان في 11 يوليو 2015م.

بعد إجرائها الامتحان التمهيديّ في جامعة كوبنهاغن University of Copenhagen؛ ذهبت كرون إلى باريس لتعلم اللغة الفرنسيَّة، ثم إلى لندن، المملكة المتحدة، حيث كانت مصممة على الالتحاق بجامعةٍ لتتحدث الإنجليزيَّة بطلاقةٍ. وفي عام 1974، حصلت على درجة الدكتوراه في الفلسفة من كلية الدراساتٍ الشرقيَّة والإفريقيَّة School of Oriental and African Studies بجامعة لندن بأطروحة بعنوان: «الموالي في العصر الأمويّ، *The Mawali in the Umayyad period*». وكانت، آنذاك، زميلةً باحثةً أولى في معهد واربورغ Warburg Institute حتى عام 1977.

عمِلت كرون في الفترة من سنة 1997 حتى تقاعدها في عام 2014 في معهد الدراسات المتقدمة Institute for Advanced Study في برينستون في نيو جيرسي، وعُرفت باعتبارها مؤرخة للدين الإسلاميّ، وقد تعاملت مع القرآن ككِتاب مُقدسٍ وتأريخيّ، كما هو الحال مع الكتاب المقدس (العهدين القديم والجديد).

تُعدّ كرون من ضمن طبقة المراجعين أو المنقحين الغربيين للتراث الإسلاميّ، واشتهرت بكتابتها الفريدة، ومن ذلك كتابها الهاجريون *Hagarism* الصادر عام 1977، بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور ميخائيل كوك Michael Cook، كما صدر لها العديد من الكتب والمقالات، وتم جمع مقالاتها في 3 مجلدات؛ إحياءً لذكراها، وهذه واحدةً من مقالاتها.

تُسلط هذه المقالة على المهن والحرف والأعمال التي مارستها قُريش قبل عند ظهور الإسلام. وقد اعتمدت كرون على قراءة ودراسة القرآن الكريم، فحسب، ولم تكن دراستها لوسيلة كسب العيش لدى قريش عادية، بل درست المسألة من خلال تحليل الخطاب لآيات القرآن الكريم؛ أي قراءة ما وراء النص. وتناولت في دراستها الحالية المهن الآتية: الزراعة، والسفر برًا وبحرًا، والتجارة، وصيد السمك.

حاولت كرون، حسب المنهج العلميّ، أن تكون محايدةً؛ لذا يُنظر في هذا العمل احترامها الكامل للقرآن الكريم ككتابٍ مُقدسٍ؛ ولذا جاءت آرائها ونتائجها الواردة هنا غير جارحةٍ لمشاعر أو اعتقادات المسلمين، بقدر ما تفتح لهم أبعادًا للتفكير في كتابهم المُقدس، القرآن الكريم.

تنويه للقارئ:

أولًا: ما كان مِن تَعليقٍ مني أو إِضافة أو تصويبٍ؛ فقد وضعتْه بَيْن معقوفتين [ ].

ثانيًا: فيما يتعلق بترجمة الآيات القرآنيَّة؛ فقد أتيتُ بها كما هي في المصحف الشريف.

ثالثًا: ما ورد من أسماء لأعلام أجانب، لأول مرة في ثنايا هذا العمل؛ فقد ذكرتُ الاسم باللغة العربيَّة (الشكل الصوتي للاسم)، ثم أعقبته بذكر اسمه كما هو باللغة الأجنبيَّة، وإذا تكرر ذكر اسمه فيما بعد، فقد اكتفيتُ بذكر الاسم بالرسم الصوتي بالعربيَّة.

رابعًا: قُمتُ بصنع قائمة المصادر والمراجع، وفرزتها على 3 قوائم، فما كانت مصادر عربيَّة؛ وضعتها في القائمة الخاصة بالمصادر والمراجع باللغة العربيَّة، وما كانت مصادر بغير اللغة العربيَّة؛ فقد جعلتها في قائمة المصادر والمراجع التي باللغة الأجنبيَّة، وجعلت القائمة الأخيرة لمصادر الشبكة العنكبوتيَّة.

وأخيرًا... عند ذكر مصادر الكتاب، باللغة الأجنبيَّة، في الهامش، فإذا كانت مصادر عربيَّة، فقد أتيتُ بتعريفها باللغة العربيَّة، وما كان باللغة الأجنبيَّة، فقد ترجمت اسم المؤلف وعنوان الكتاب أو البحث أو المقال الرئيس باللغة العربيَّة، ثم أتبعته بذكر معلوماته، كما جاءت في أصل هذا العمل.

[مقدمة]:

من بين الأسئلة المقاليَّة، الأكثر شهرةً، والتي تم وضعها لطلبة الدراسات الإسلاميَّة في المملكة المتحدة، هو السؤال الذي يطلب التعليق على القول المأثور إن «القرآن هو المصدر الوحيد الموثوق به لظهور الإسلام». ويستجيب الطلبة، عادةً، بسردٍ لتكوين النص القانونيّ وتعليقٍ مفاده: إنه كيفما كان تصورنا لهذه العمليَّة، فإن القرآن ليس مصدرًا غنيًا بالمعلومات التأريخيَّة، قليلون قد يختلفون مع هذ النتيجة. ويستخدم مؤرخو سيرة النَّبيّ القرآنَ، كما هو موضحٌ في التفاسير، والذي يُوفر الأسماء والتواريخ والقصص وغيرها من البيانات التكميليَّة التي يحتاجون إليها، ويميلون، عن غير قصدٍ، إلى القيام بذلك حتى عندما يعتقدون أنهم يستخدمون القرآن وحده، ولكننا ربما وصلنا إلى حد التقليل من أهميَّة القرآن كمصدرٍ. قد لا يكون القرآن غنيًّا بالأدلة التأريخيَّة؛ ولكننا لسنا معتادين على الضغط عليه للحصول على معلوماتٍ إضافية، ربما لأن الوفرة الهائلة في المواد التفسيريَّة تبدو وكأنها تجعل الأمر غير ضروريٍّ. ومع وجود الكثير من أعمال التفسير والحديث والسِّيرة التي يجب الاهتمام بها؛ يصل التفكير بالمرء، فيما يتعلق بالمقاطع القرآنيَّة، باعتبارها مجرد تفسيراتٍ، إلا أنه يجب البحث عن جوهرها في مكانٍ آخر. وهذا كله من أجل فهم المؤرخين لردود فعل القُراء تجاه القرآن، ولكن من الواضح أن هذا لن يُناسب المهتمين بالمجتمع الذي ظهر فيهم القرآن. وفيما يلي، سأتجاهل التراث التفسيريّ، حتى يتسنى لي النظر إلى القرآن لوحده، بهدف الإجابة عن سؤال واحد وبسيط: كيف يتصور القرآن كسب المشركين لرزقهم؟

1. الزراعة:

في سورة يس يُطلب من النَّبيّ تحذير قوم لم يُنذر آباؤهم وكانوا غافلين وغير مستجيبين: (**وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**)؛ و(**مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**) (سورة يس، الآيات 6-10، 30). ومن الآيات التي يُحاول بها الرسول إقناع هؤلاء المعاندين: (**وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ # وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ # لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ**) (سورة يس، الآيات 33-35). والنقطة نفسها موجودة في الآية 63، وما بعدها، من سورة الواقعة: (**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ # أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**) وفي هذه المقاطع، فالكُفار هم فلاحون يظنون، بحماقة، أنهم من يزرعون الحبوب والنخيل والعنب ونحوها؛ فهم يُعانون من النزعة البشريَّة إلى الغطرسة؛ لأن الله هو المُسبب لهذه الأشياء.

إن المرء ليُفاجأ قليلًا بهذه المقاطع، بالنظر إلى أن المكيين، الذين يُعرفون تراثيًا بالشعب العنيد، معروفون جيدًا لدى كل مُسلم أنهم تجار، تقع مدينتهم في بُقعةٍ قاحلةٍ، ولكنهما مجرد مقطعين من آياتٍ كثيرة في القرآن، تُشير إلى أن خصوم النَّبيّ كانوا مزارعين، مهما كانت مهنتهم الإضافيَّة. إن إحياء الله للأراضي الميتة هو موضوعٌ بارزٌ، كبرهانٍ على قُدرته وكدليلٍ على البعث، وتكون الإشارة، في الغالب، إلى النباتات المزروعة، وليس

إلى الزهور التي تظهر في الصحراء في الربيع أو غيرها من الزهور البريَّة. فالله يُنشئ (**حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَة**) (سورة النمل، الآية 60؛ وراجع: سورة عبس، الآية 30). و(**وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ**) (سورة الأنعام، الآية 99)، أو، ببساطة، (**مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ**) (سورة الأعراف، الآية 57؛ وراجع: سورة إبراهيم، الآية 32). وتذكر مقاطع أخرى الحَب ونباتاتٍ أخرى (سورة النبأ، الآية 15)، والحدائق والحبوب والنخيل (سورة ق، الآية 9، وما بعدها)، والنخيل والعنب (سورة النحل، الآية 67؛ وسورة المؤمنون، الآية 19)، والنخيل، والحبوب، والعنب، والزيتون (سورة النحل، الآية 11)، والعنب والتمر والزيتون والفاكهة والأعلاف، وكل ذلك (**مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ**) (سورة عبس، الآيات 27-32). ومع ذلك، لا يُقال هنا، صراحةً، إذا كان الكُفار يزرعون مثل هذه الأشياء بأنفسهم.

إن كونهم مزارعين لا يقل وضوحًا عن حقيقة أن لديهم طقوسًا زراعيَّة يُعارضها الرسول بشدة: (**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ**) (سورة الأنعام، الآية 136). و(**وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ**) (سورة الأنعام، الآية 138). يبدو أن الطقوس تتكون من تكريس أول الثمار الزراعيَّة والنتاج الأولي من الحيوانات الأليفة إلى الإله، وهي واحدةٌ من المقاطع العديدة التي تُبين أن المشركين آمنوا بالإله نفسه الذي آمن به الرسول[1]. وعلى ما يبدو، فإن الأصناف المخصصة لله و«شُركائه» تُركت كما هي: (**لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ**)، ربما يعني الفقراء والمسافرين. وكانت مُحرمةٌ، على أي حال، على مالكي الثمار/النتاج الأولي أنفسهم.

ويرد الرسول، جزئيًا، بإنكار أن الله سوف يتلقى أيًا منها (سيذهب كل ذلك إلى «الشركاء»؛ أي الكائنات الروحانيَّة الأقل، الذين تم تحديدهم، ضمنيًا، على أنهم شياطين، هنا)، وجزئيًا من خلال تحديد الطريقة التي يجب أن يتصرف بها المرء، فعليًا. ويُؤكد أن الله هو المسؤول عن إنماء الحدائق والنخل والزرع، بأنواعه، والزيتون والرمان، ويُضيف: (**كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ # وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**) (سورة الأنعام، الآية 141، وما يليها). ومجددًا، فمن الواضح أننا في مجتمعٍ زراعيٍّ. ولكلٍ من الكُفار والمؤمنين حقولٌ وحدائقٌ وأنعام؛ كلاهما يحصد الحبوب والزيتون والرمان، ولكن لدى كلٍ منهما وجهات نظرٍ مختلفةٍ حول الطريقة التي يُريد الله أن يتم بها التعامل مع الحصاد.

---

1 انظر: وليام مونتغمري واط، «الإيمان بـ «الإله الأعلى» في مكة قبل الإسلام»، W. M. Watt, 'Belief in a High God' in Pre-Islamic Mecca', *Journal of Semitic Studies* 16, 1971؛ وجيرالد ر. هوتنغ، فكرة عبادة الأصنام وظهور الإسلام، R. Hawting, *The Idea of Idolatry and the Emergence of Islam* (Cambridge, 1999).

وكان للمشركين، أيضًا، طقوسٌ أخرى تتعلق بالماشية. فقد كانت هناك حيوانات يَحرم الركوب عليها، وأخرى لا يذكرون اسم الله عليها (أي عند ذبحها)؛ ومن الواضح أن الذبح كان عادةً مقدسةً (سورة الأنعام، الآية 138). وكان هناك، أيضًا، عُرف بحجز صغار بعض الحيوانات لرجال المجتمع، ومنع زوجاتهم من الأكل منها؛ مالم تُولد الصغار ميتةً، وفي هذه الحالة، يتقاسمونها (سورة الأنعام، الآية 139). والظاهر، أنها كانت أزواجًا من الحيوانات التي عُزلت في واحدةٍ من هذه الشعائر أو كلها؛ فيأتي رد الرسول بسرد أزواجٍ من الغنم والمعز والإبل والبقر، ويسأل، بسخريةٍ: ما الذي من المفترض أن يحرمه الله بالضبط: الذكرين أم الأنثيين، أم جنين الأنثيين؟ وهل كان الكافرون حاضرين عندما أمر الله بمثل هذا الأمر؟ ويقول: (**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ**) (سورة الأنعام، الآية 143، وما بعدها). ويُجيب، مجددًا، بتوضيح الحقيقة: (**قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**) (سورة الأنعام، الآية 145). وفي مكانٍ آخر، يروي مثلًا تحذيريًا يبلغ ذروته مع القواعد نفسها (سورة النحل، الآيات 112-116).

وهنا، إذن، نرى أن الكُفار لم يحتفظوا بالإبل فحسب، بل أيضًا، بالأغنام والماعز والأبقار والثيران: (**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**)، كما تقول الآية 5 من سورة النحل؛ و(**وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**) (سورة النحل، الآية 5[/6]). والإشارة، هنا، هي إلى القطعان التي لا يزال بإمكان المرء رؤيتها، وهي تُساق من وإلى القرى بشكلٍ يوميٍّ في الشرق الأوسط، والملاحظة التي مفادها إن أصحابها وجدوها جميلةً؛ هي موحيةٌ بشكلٍ خاص: بأننا في مجتمعٍ ريفيٍّ من حيث القيم، أيضًا. وعندما يُقال إن مالكيّ الماشية يستمدون الدفء من ماشيتهم؛ فهي إشارةٌ إلى البضائع المصنوعة (**وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا**)، والمدرجة ضمن فوائد الماشية في مقطعٍ آخر (حيث لا يُوصفون فيها بأنهم أصحابها)، (سورة النحل، الآية 80). ويوم القيامة ستكون الجبال «كالصوف المنفوش» (سورة القارعة، الآية 5). ويُقال للناس أن لا ينقضوا عهودهم مع الله، كالمرأة التي تحل خيط غزلها (سورة النحل، الآية 91، وما بعدها)، بينما يتم تذكير الكُفار أن الماشية تُوفر لهم الطعام والشراب، وأنهم يركبون عليها (سورة المؤمنون، الآية 21؛ وسورة يس، الآيات 71-73، حيث يتم وصفهم، صراحةً، بأنهم يملكونها). وكان لديهم، بالإضافة إلى ذلك، الخيل والبغال والحمير ليركبوا عليها (سورة النحل، الآية 8).

تم تأكيد وجودنا في مجتمعٍ زراعيٍّ من خلال مَثلين؛ أحدهما يتعلق بمجموعةٍ من الأشخاص يمتلكون حديقةً، ويُقررون قطف ثمارها في صباح اليوم التالي؛ وقرروا القيام بذلك دون أن يقولوا: «إن شاء الله»؛ فتدمرت الحديقة أثناء الليل (**فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ**)؛ وجاهلين بذلك؛ انطلقوا في صباح ذلك اليوم، عازمين على منع الفقراء من دخول الجنة أولًا، وعندما وجدوها خربةً؛ رجعوا إلى الله بالتوبة، مُعبرين عن

رجائهم في أن يمنحهم جنةً أفضل من هذه (أي في اليوم الآخر، سورة القلم، الآيات 17-33)[2]. والعبرة، كما هو الحال في كثيرٍ من الأحيان، هي أن البشر يجب أن يتعلموا الاعتراف بعجزهم تجاه الله، الذي تتجلى هنا قوته من خلال بعض القوة التدميريَّة للطبيعة. والمثل الآخر، وهو أطول بكثيرٍ، ويتعلق برجلين: مؤمن وكافر (سورة الكهف، الآيات 32-44). لقد منح الله جنتين لأحدهما (وليس، كما يتوقع المرء، أن يكون لكل منهما حديقةً، على الرغم من أن هذه ربما تكون رواية سابقة). وكانت الحدائق من العنب، وكل حديقةٍ مُحاطةٍ بالنخل، وبينهما زرع ونهر. وأنتجت كلتا الحديقتين منتجاتٍ وفيرة. ولم يُخبرنا بما حصل عليه الرجل الآخر، ولكن من الواضح أن وضعه كان على غير ما يرام؛ لأن صاحب الجنتين كان يتفاخر أمامه بثروته وقوته الفائقة. وظلم الرجل الثري نفسه، أيضًا، بدخوله بمفرده إلى حديقته، وهو يقول: (**مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا # وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا**)، فرد الرجل الفقير بسؤاله إياه عما إذا كان لا يؤمن بالله الذي خلقه من نطفة، على الرغم من أن الرجل الثري لم يُنكر وجود الله: وهنا، كما هو الحال في كثيرٍ من الأحيان، يبدو أن الكُفر لا يكمن في الكُفر؛ بل، بالأحرى، في عدم مراعاة الله في فكره وعمله. ويبدو أن الرجل الثري قد ضاعف غطرسته بالشرك، لكن الرجل الفقير استمر في التأكيد على أنه (**لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا**)، كما أخبر الرجل الفقير الرجل الثري أنه كان ينبغي على الأخير أن يقول: (**مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**)، عندما دخل حديقته وهو يظن أنها لن تهلك أبدًا، وأنه على الرغم من أن الرجل الفقير لم يكن ذا مال وبنين؛ فعسى الله أن يرزقه خيرًا من هذه الدنيا (أي في اليوم الآخر). ويُضيف الرجل الفقير أن الله قد يُرسل، أيضًا، صاعقةً على حديقة الرجل الثري؛ فيُحولها إلى مجرد رملٍ، أو قد يجعل المياه تتدفق تحت الأرض حتى لا يتمكن من العثور عليها مرةً أخرى. ويبدو أن الله قد فعل ذلك؛ لأن مع المتابعة يُخبرنا الله أنه قد أُحيط بثمار الرجل الثري، وأنه كان يتجول، وهو يفرك يديه ويندب: (**يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا**)، ولم يكن هناك من يُعينه إلا الله نفسه، مصدر الحماية الوحيد.

هذه صورة للمُشرك النموذجيّ. هنا، كما هو الحال في أي مكانٍ آخر في القرآن، فهو رجلٌ ذو مالٍ وبنين (سورة القلم، الآية 14؛ وراجع: سورة الأنفال، الآية 28؛ وسورة الكهف، الآية 46؛ وسورة الحديد، الآية 20)، يُؤمن بالله، ولكنه يُشرك به، فقط ليكتشف أن الشركاء المفترضين لا يستطيعون أو لن يستطيعوا مساعدته في مواجهة الله (على سبيل المثال: سورة النحل، الآية 27؛ وسورة الشعراء، الآية 92، وما يليها؛ وسورة القصص، الآية 62، وما بعدها؛ وسورة الأحقاف، الآية 5). وهنا، كما في أي مكانٍ آخر أيضًا، يُنكر أن القيامة ستقوم أو أنها على وشك أن تأتي (على سبيل المثال: سورة الإسراء، الآية 51؛ وسورة الفرقان، الآية 11؛ وسورة الأحزاب، الآية 3؛ وسورة الجاثية، الآية 32)، ولديه شكوكٌ حول يوم القيامة. وغالبًا ما يرفض المُشركون فكرة البعث الجسديّ رفضًا قاطعًا (على سبيل المثال: سورة الرعد، الآية 5؛ وسورة الإسراء، الآيات 49-52، 98؛ وسورة الحج، الآية 5؛ وسورة يس، الآية 78)، أو ربما حتى الحياة الآخرة (على سبيل المثال: سورة الأنعام، الآية 29، 150؛ وسورة سبأ،

2 يُؤخذ المثل للإشارة إلى القطفة الأولى من الفواكه في جوناثان بينثال، «بواكير الفاكهة في القرآن»، J. Benthall, 'Firstfruits in the Quran', (in A. I. Baumgarten (ed.), *Sacrifice in Religious Experience* (Leiden 2002) (following Décobert 136)، ولم يناقش الآية من سورة الأنعام.

الآية 8)؛ على الأقل لم يخشوا حسابًا (سورة النبأ، الآية 27). وهنا لا تُوجد إشارة إلى الشكل الذي قد تتخذه الحياة الآخرة، ولا يتم استبعاد فكرة العودة إلى الله بشكلٍ إيجابيٍّ؛ ولكن يتم رفض إمكانيَّة العقاب الأخروي. وكما هو الحال في كثيرٍ من الأحيان، يَظلم المشرك نفسه بسبب تكبره[3]: فهو راضٍ عن نفسه، وواثقٌ جدًا في قوته البشريَّة، ويَفتقر إلى الخوف من الله؛ لدرجة أنه لا يستمع إلى التحذيرات عندما تأتيه: (**يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ**)، كما جاء في الآية 3 من سورة الهمزة. ويُلحق الله به كارثةً، ويُدمر حديقته بالطريقة نفسها التي دمر بها الأمم الماضيَّة. ويحذر الرسول، مرارًا وتكرارًا، خصومه الكُفار من أن كارثةً مماثلةً ستحل بهم قريبًا، أيضًا.

إذن فالمُشرك النموذجيّ هو مزارع، وتماشيًا مع هذا؛ فقد تم تصوير الأمم التي أُرسل إليها الأنبياء السابقين، أيضًا، على أنهم مزارعون. وأخبر هود قومه أن الله قد وهبهم أنعامًا وبنين وجناتٍ وينابيع (سورة الشعراء، الآية 133، وما بعدها)، ووعدهم بأمطارٍ غزيرة إذا هم تابوا (سورة هود، الآية 52)؛ وسأل صالح قومه عما إذا كانوا يأمنون على بساتينهم وعيونهم وحقولهم ونخيلهم ذات العذق الذي يكاد ينكسر من وزن الثمر (سورة الشعراء، الآيات 146-148). ويتساءل الرسول: (**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**)، مُشيرًا إلى أن الأمم المعنيَّة قد ظلمت نفسها، ووصلت إلى نهاية مأساوية؛ مع أنهم (**كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا**)، سورة الروم، الآية 9، وجاء الوصف باختصار أكثر في سورة غافر، الآية 21). وكان لسبأ جنتان، وقيل لهم: (**كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ**)؛ فاعرضوا عن الله؛ فأرسل طوفانًا فأهلك جنتيهم (سورة سبأ، الآية 15، وما يليها). وكان الشعب الذي أخرجهم موسى من مِصر، أيضًا، مزارعين: (**كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ # وَزُرُوعٍ**) (سورة الدخان، الآية 25، وما بعدها؛ وراجع: سورة الشعراء، الآيات 57-59).

تم تصنيف السور المذكورة حتى الآن على أنها مكيَّة؛ على الرغم من وجود خلافٍ حول الآية 141 من سورة الأنعام (**كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**)[4]. إن تقسيم السور إلى مكيَّة ومدنيَّة؛ يأتي، بطبيعة الحال، من الأحاديث والآثار النبويَّة، ولم يُهتم بها حتى اللحظة؛ ولكن القراء الذين يتساءلون عما إذا كانت الإشارات العديدة إلى الزراعة يُمكن أن تعود إلى ما بعد هجرة النَّبيّ إلى الواحة الزراعيَّة في يثرب؛ فيجب أن يعلموا أنه بقدر ما يتعلق الأمر بالأحاديث والآثار النبويَّة؛ فإن الإجابة هي «لا».

ومع ذلك، فإننا نسمع عن الزراعة في السور التي تم تحديدها على أنها مدنيَّة، أيضًا: (**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ**) (سورة البقرة، الآية 261)، أو (**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ**) (سورة البقرة، الآية 265)، و(**كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ**

3 راجع: موسوعة القرآن، مادة «الغطرسة»، *Encyclopaedia of the Qur'an* (ed. J. D. McAuliffe), (Leiden, 2001-), s.v. 'ar-rogance' (Nasr Abu Zayd).

4 كانت المشكلة في العلاقة بين الحكم المفروض، في هذه الآية، والزكاة المفروضة في المدينة المنورة، وليس في تصوير المؤمنين بالمزارعين. انظر، على سبيل المثال: فخر الدين الرازيّ، التفسير الكبير (طهران، 1413هـ)، 213/3

النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ) (سورة البقرة، الآية 264)، و(**مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ**) (سورة آل عمران، الآية 117)، و(**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ # وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ**) (سورة البقرة، الآية 205[/الآيتان 204-295])، و(**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ**) (سورة البقرة، الآية 266). وهذا كله كما كان من قبل، باستثناء أن القنوات في المقطع الأخير تجري تحت الحدائق، كما يحدث في الجنة، أيضًا، وليس بينها (على شكل عيون وينابيع) كما يفعل المُشركين. وتُصوّر البقرة، التي أُمر بني اسرائيل بالتضحية بها، على أنها (**لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ**) (سورة آل عمران، الآية 71)، ولا تزال مرغوبات الدنيا تشمل الأنعام والأرض (سورة آل عمران، الآية 14).

يقول واينز Waines، في مقالٍ، متضمنًا معظم ما قلته حتى الآن: «وتحتل الزراعة والغطاء النباتي مكانةً بارزةً في القرآن؛ مما يعكس أهميتهما في البيئة التي نزل فيها الوحي»[5]، وهذا ما يحدث بالفعل؛ فكيف يُمكن التوفيق بين هذا والادعاء التراثيّ بأن المُشركين كانوا يعيشون في وادٍ قاحلٍ؟ ويلاحظ واينز أن «القرآن يُشير إلى تقشفٍ أقل حدةٍ». وربما كانت المنطقة، بأكملها، أكثر خصوبةً مما تبدو عليه بفضل تقنيات الري المتطورة، ويضيف هيك Heck: لا تزال بقايا ما يصل إلى تسعة عشر سدًا، أو أكثر، موجودةً في منطقة الحجاز[6]. ولكن بغض النظر عن أن هذه السدود بُنيت، إلى حدٍ كبير، أو تم بناؤها بالكامل بعد ظهور الإسلام؛ فإنه لا يبدو أن أيًّا منها في مكة، ولكن يُمكننا حل هذه الإشكاليةِ، في الواقع، من خلال افتراض أن مكة كانت خصبةً؛ لأن القرآن نفسه هو الذي يصف الحرم الإبراهيميّ بأنه يقع في وادٍ غير مزروع (سورة إبراهيم، الآية37)، كما أن القرآن نفسه هو الذي يضع المُشركين في بيئةٍ خصبةٍ.

وهذا يطرح، بوضوحٍ، مسألة ما إذا كان القرآن يتصور الحرم الإبراهيميّ كمقر إقامةٍ للمُشركين. ومن المؤكد أن هذا ليس مستحيلًا؛ إذ طلب إبراهيم من الله، عندما استقرت ذريته عند الحرم، أن يُطعمهم من الثمر (سورة إبراهيم، الآية 37): وربما الفرض، هنا، هو أن الزراعة ظهرت لاحقًا. وبدلًا من ذلك، هل يُصور القرآن الحرم الإبراهيميّ مهجورًا باستثناء عائلةٍ صغيرةٍ من الأوصياء يسكنها الحجاج وغيرهم من الزوار؛ مما يعني، ضمنًا، أن المجتمع الزراعيّ للمُشركين كان موجودًا في مكانٍ آخر؟ وهذا ممكنٌ، أيضًا. ففي الواقع، يبدو أن كلا الاحتمالين قد اقترحا نفسيهما على القراء الأوائل للقرآن؛ لأن هناك روايةٌ تقول إن مكة كانت خصبةً بشكلٍ غير عاديٍّ، وهذا ما كان عليه الحال في عهد قطورة وجُرهم والعماليق وقصي (ولكن ليس على ما يبدو

---

5 ديفيد واينز، موسوعة القرآن، مادة «الزراعة»، D. Waines, 'Agriculture', in *Encyclopaedia of the Qur'an*, 40.

6 جين دبليو هيك، «"الجزيرة العربيَّة بلا بهارات": فرضيَّة بديلة»، G. W. Heck, ' "Arabia without spices": an alternate hypothesis', *Journal of the American Oriental Society* 123, 2003, 566

في زمن النَّبيّ)[7]، وظل حرمًا صحراويًّا حتى بدأ مُعاويَة بالحفر والبناء فيها؛ فثارت عاصفةٌ من الاحتجاج: فليس له أن يزرع حدائق في مكانٍ وصفه الله نفسه بأنه خالٍ من الزراعة. وينبغي أن تظل مكة مكانًا به مساحاتٍ واسعةٍ غير مبنيَّة، وتكون في متناول الجميع، ومكانًا ينصبُ فيه الحجاج خيامهم، كما فعلوا في الماضي، وليست واحدةً من المدائن والقصور[8]. ولكن القرآن يقول، أيضًا، إن الله قد أنشأ حرمًا آمنًا، بينما كان الناس مِن حول الكُفار يتم اختطافهم بعيدًا (سورة العنكبوت، الآية 67)، وإذا امتنع الناس عن الهَدى بحجة أنهم سيُنتزعون من أرضهم إذا اتبعوه؛ فالرد عليهم هو:)**أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا**((سورة القصص، الآية 57). ويُمكن أن يؤخذ هذا على أنه دليلٌ أن الكُفار كانوا يعيشون في حرمهم؛ لكنهم كانوا يعيشون دون تطويره زراعيًّا: فالثمار جاءت من خارجه[9]. وكان هذا هو الحل الذي استقر عليه التراث. وذهب بعض العلماء إلى أنه استجابةٌ لدعوة إبراهيم؛ أقام الله رحلتي تجارة، واللتين حرر بهما قريش من الجوع والخوف[10]، أو كانت استجابةً لدعوة إبراهيم أنه نقل الطائف من الشام إلى الجزيرة العربيَّة[11]؛ أو إن الثمار تأتي من القرى والبلدات المجاورة كما يذهب الكثيرون[12]. والحقيقة، أنه مِن خِلال جعل القرى والبلدات المجاورة لمكة تحمل زادًا إليها؛ فقد مكّن الله قريشًا من التوقف عن رحلتيهما التجاريتين، وفقًا لوجهة النظر القائلة إن التجارة المكيَّة قد انتهت في وقتٍ ما قبل ظهور الإسلام[13].

إذن، كيف يتعامل المفسرون مع الآيات التي يُوصف فيها المُشركون، ضمنًا أو صراحةً، بأنهم مزارعون؟ ومن الغريب أنهم يتجاهلون المشكلة. وفي الواقع، إذا كان اهتمام المرء هو مجرد السياق التأريخيّ للوحي، دون غرابة الأمثلة المُستخدمة لإقناع الكُفار، فإن القرآن سيظهر لأي قارئ آخر على أنه يُقدم نقاطًا واضحةً عالميًا ذات صلاحيَّةٍ أبديَّة. ولكن المفسرين الأوائل اهتموا بالسياق التأريخيّ. ومن المؤكد أن التراث التفسيريّ واسعٌ، حيث لا يُمكن الجزم بما هو فيه وما ليس فيه، خاصةً عندما يتعلق الأمر بآياتٍ قرآنيَّةٍ كثيرة؛ فمن الصعب

---

7 انظر المصادر المذكورة في باتريشيا كرون، تجارة مكة وظهور الإسلام، P. Crone, *Meccan Trade and the Rise of Islam* (Oxford and Princeton, 1987), 198, n. 134.

8 الكلبيّ في البكريّ، معجم ما استعجم، تحقيق: فرديناند فيستنفيلد (لايبزيغ، 1858م)، ص58؛ ومير جاكوب كيستر، «بعض التقارير المتعلقة بمكة من الجاهليَّة إلى الإسلام»، M. J. Kister, 'Some reports concerning Mecca from Jāhiliyya to Islam', *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 15, 1972, 86ff.. وكلاهما مذكورٌ في كرون، تجارة مكة، Crone, *Meccan Trade*, 197f. ولمزيدٍ من الاطلاع على التنميَّة الزراعيَّة التي قام بها مُعاويَة في المنطقة؛ انظر، أيضًا، أدناه، الهامش14

9 القراءة البديلة هي أنهم، ببساطة، لجأوا إلى الملجأ أثناء بعض الأزمات، عندما تعرضوا لخطر «الاختطاف» من الأرض التي كانوا يعيشون ويعلمون فيها عادةً.

10 ذُكر في الزمخشريّ، الكشاف (بيروت، 1947م)، 803/4: سورة قريش، الآية 4، حيث ورد ذكر الرحلتين (دون وصفهما بأن لهما علاقة بالتجارة، راجع أدناه، الهامش25).

11 على سبيل المثال، انظر: الطبريّ، جامع البيان (بيروت، 1988م)، 235/8: سورة إبراهيم، الآية 37؛ وراجع، أيضًا، ومير جاكوب كيستر، «بعض التقارير المتعلقة بالطائف»، M. J. Kister, 'Some reports concerning Ta'if, *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, i, 1979, n. 77.

12 انظر، على سبيل المثال، الطبريّ؛ والماورديّ؛ وفخر الدين الرازيّ: سورة إبراهيم، الآية 37

13 مُقاتل بن سُليمان، التفسير، تحقيق: عبد الله محمود شحاتة (القاهرة، 1979م)، 861/4، وما بعدها: سورة قريش؛ والكلبيّ في ابن حبيب، المنمق (حيدر أباد، 1964م)، ص262، وما يليها؛ راجع: كرون، تجارة مكة، Crone, *Meccan Trade*, 205ff.

تصديق أن المشكلة مرت دون أن يلاحظها أحد، ولكن القيام بفحص عينةٍ عادلةٍ من المؤلفات التفسيريَّة حول المقاطع الأكثر إشكاليَّة بشكلٍ صارخ، تلك التي تُقدم الكُفار على أنهم مزارعي زيتون؛ لم يُسفر عن شيءٍ.

والجواب الذي كان يتوقع المرء أن يأتي به المفسرون هو أن المقاطع المتعلقة بالزراعة تُشير إلى أماكن خارج مكة، وقبل كل شيءٍ إلى الطائف، حيث كان المكيون يملكون حدائق. ما هو الحل الآخر الذي يُمكن أن يكون؟ ويأتي حلٌّ مفاده أن النخيل والرمان والعنب كلها تُناسب جو الطائف بسهولة، لكن الحبوب والزيتون تُمثل مشكلة أكبر. وبعد الفتوحات، عندما بدأ مُعاويَة وغيره من الأثرياء القرشيين تنميَّةً زراعيَّةً ضخمة في الحجاز؛ أصبحت الحبوب تُحصد هناك على نطاقٍ واسع[14]، وربما يُمكن القول إن بعضها كان يُزرع هناك قبل ظهور الإسلام، أيضًا. ولكن الروايات تربط الحبوب، دائمًا، بسُوريَة[15]. وربما كانت هناك، على حد علمنا، محاولاتٍ لزراعة الزيتون في الحجاز، أيضًا، بعد الفتوحات[16]؛ ولكن إذا حدثت؛ فإنها لم تنجح؛ لأسبابٍ واضحةٍ: فالزيتون (*Olea europaeana*) في شكله المزروع هو شجرةٌ تتكيف مع ظروف البحر الأبيض المتوسط. وهو ينمو بريًا في الغابات الجبليَّة والشجيرات في الجزيرة العربيَّة، بما في ذلك منطقة الطائف، ولكنه يتم كذلك كجزءٍ من الغطاء النباتيّ الذي يربط الجزيرة العربيَّة بإفريقيا بدلًا من البحر الأبيض المتوسط، في شكل

14 بالنسبة إلى حفر مُعاويَة الآبار والقنوات وزراعة الحدائق في مكة (يُقال إنه أول من فعل ذلك)؛ انظر: كيستر، «بعض التقارير»، Kister, ‘Some reports’, 89f.؛ وراجع، كذلك، السد الذي أقامه في الطائف (جي سي مايلز، «النقوش الإسلاميَّة المُبكرة بالقرب من الطائف في الحجاز»، G. C. Miles, ‘Early Islamic inscriptions near Ta’if in the Hijaz’, *Journal of Near Eastern Studies* 7, 1948)، والسدود المذكورة في هيك، «الجزيرة العربيَّة بلا بهارات»، Heck, “Arabia without spices”, 566. وبالنسبة لمؤسسات مُعاويَة الزراعيَّة في المدينة المنورة في الحجاز والتوترات التي أثارتها؛ انظر: مير جاكوب كيستر، «معركة الحَرة: بعض الجوانب الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة»، M. J. Kister, ‘The Battle of the Ḥarra: some socioeconomic aspects’, in M. Rosen-Ayalon (ed.), *Studies in Memory of Gaston Wiet* (Jerusalem, 1977), 38ff.، راجع: الهامش8، أعلاه؛ وبالنسبة للقريشيين الآخرين؛ انظر: هيك، «الجزيرة العربيَّة بلا بهارات»، Heck, “Arabia without spices”, 565، الذي يفترض، عن غير قصد، أن أنشطتهم كانت قبل الإسلام. كما يُقدم هيك، أيضًا، أبا طالب، الذي كان ينتمي إلى عصر ما قبل الإسلام، كمثالٍ لفئةٍ من رجال الأعمال الذين كانوا «أثرياء لدرجة كافيَةٍ؛ بحيث لم يكن هناك حاجة إلى رأس مال استثماريّ خارجيّ لضمان مشاريعهم الإنتاجيَّة»، مُدعيًا أنه كان «من بين مزارعي القمح المكيين الذين باعوا منتجاتهم الخاصة»، وأنه «بالإضافة إلى كونه سمسارًا كبيرًا للحبوب؛ كان أبو طالب تاجرًا للعطور» («الجزيرة العربيَّة بلا بهارات»، Heck, “Arabia without spices”, 561, 571). وعلى الرغم من كل هذا؛ فإنه يُحيل القارئ إلى ابن قتيبة، الذي يكتفي بقوله: «كان أبو طالب يبيع العطر، وربما باع البُر». (ابن قتيبة، المعارف، تحقيق: ويستنفيلد (ليدن، 1850م)، ص283؛ وبتحقيق: ثروت عُكاشة (القاهرة، 1969م)، ص575؛ وبتحقيق: محمد اسماعيل عبدالله الصاويّ (بيروت، 1970م)، ص249؛ وفي الرواية الموازيَّة التي قدمها ابن رُستا، تم استبدال كلمة البُر باللبان؛ راجع: كرون، تجارة مكة، Crone, *Meccan Trade*, 53n.). وأين يجد هيك المعلومات التي تُفيد بأنه كان سمسار حبوب (على عكس التاجر)، وأنه كان من كبار التجار، وأنه قام بزراعة منتجاته الخاصة، أو أنه كان ثريًّا بما يكفي لإدارته دون رأس مالٍ استثماريّ خارجيّ؟

15 راجع: كرون، تجارة مكة، Crone, *Meccan Trade*, 98, 104, 139--41, 150, 160. ومن سُوريَة، أيضًا، تأتي الحبوب في جميع الأمثلة التي ذكرها هيك، «الجزيرة العربيَّة بلا بهارات»، Heck, “Arabia without spices”, 573 (فيما يتعلق بعبد الله بن جُدعان، ولم يحدد مكان المنشأ، انظر: كرون، تجارة مكة، Crone, *Meccan Trade*, 104). ومع ذلك، يقترح هيك أن المكيين يمكنهم استيراد وتصدير مثل هذه الأصناف (بعد أن أنتجوها في الطائف وأماكن أخرى)، اعتمادًا على «الوظيفة الأساسيَّة لاقتصاديات السوق الحرة»، مُقدمًا أنماط التجارة بين ميشيغان الحديثة وويسكونسن، باعتبارها مثالًا («الجزيرة العربيَّة بلا بهارات»، Arabia without spices”, 573”). ولكن بغض النظر عن أننا لا نرى المكيين يُصدّرون مثل هذه الأصناف أبدًا؛ فإنهم لم يكونوا مشاركين في اقتصادٍ رأسماليّ حديثٍ قائمٍ على التوزيع السريع للمعلومات والسلع، وانخفاض تكاليف النقل، وشراء السكان لبضائعهم (بما في ذلك المواد الغذائيَّة) في السوق المفتوحة.

16 يُفترض إجراء الكثير من التجارب الزراعيَّة، في أعقاب الفتوحات، من خلال انتشار المحاصيل الذي قام بدراستها أندرو. إم. واتسون، الابداع الزراعيّ في العالم الإسلاميّ المُبكر، A. M. Watson, *Agricultural Innovation in the Early Islamic World* (Cambridge, 1983).

سُلالاتٍ إفريقيَّة[17]. وللزيتون المزروع عيبٌ، من وجهة نظر عربيَّة، أنه يحتاج إلى برد الشتاء من أجل الإزهار والإثمار[18]، ولم يكن من الممكن أن يُنتج الكثير من المحصول في مكة أو المدينة المنورة[19]، وعلى الرغم من أن الطائف تبدو واعدةً أكثر، إلا أن تقارير تُفيد أن زراعة الزيتون قد نجحت في العصر الحديث في واحة الجوف الشماليَّة (دومة الجندل سابقًا)[20]. وتصف المصادر الخاصة بالجزيرة العربيَّة عشيَّة الإسلام بأن الزيتون يأتي من سُوريَة[21]. وعندما يُحاول القرآن إقناع الكُفار بأمثلةٍ تتعلق بزراعة الحبوب والزيتون؛ لذلك يتعيَّن علينا أن نفترض أن الإشارة هي إلى قُرىً في سُوريَة؛ مر بها المكيون في رحلاتهم التجاريَّة و/أو إلى العقارات التي اكتسبوها هناك، والتي زرعوا فيها هذه المحاصيل بأنفسهم.

ومع ذلك، فإن الإشارة إلى المقاطع المعنيَّة بالطائف وسُوريَة لا يحل المشكلة بالكامل. ولسببٍ واحد، يبقى السؤال حول كيف يُمكن لوادٍ غير مزروع، به ينبوعٌ واحدٌ أن يُحافظ على استمرارية الغنم والماعز والبقر والثيران والإبل والبغال والحمير والخيول التي يُنسب إليها المشركين في القرآن، أو كيف يُمكن العثور على مرعىً لهم خارج مكة بشكلٍ يوميٍّ. ومن ناحيةٍ أخرى، هناك شيءٌ مفتعلٌ حول هذه القراءة؛ إذ إنه عادةً ما يُحاول الواعظ الوصول إلى الناس مِن خِلال التحدث معهم عن الأشياء التي تهمهم كثيرًا، والتراث واضحٌ تمامًا أنه مهما

---

17 شاهينا. آي غضنفر وم. فيشر (محرران)، الغطاء النباتيّ للجزيرة العربيَّة، S. A. Ghazanfar and M. Fisher (eds), *Vegetation of the Arabian Peninsula* (Dordrecht, 1990), 69, 91-93, 130؛ وبشكل أكثر إيجازًا، انظر، أيضًا، أنتوني ميلر وتوماس آي كوب، نباتات الجزيرة العربيَّة وسُقطرى، A. G. Miller and T. Cope, *Flora of the Arabian Peninsula and Socotra*, vol. i (Edinburgh, 1996), 20f., 26. ومن الواضح أن هذا هو النبات المعروف عند العرب باسم «الزيتون الجبليّ»، الذي نما في الشرات و(بشكل أطول) في عُمان؛ ويحتوي على ثمرةٍ سوداءٍ، كالعنب، لا تؤكل، أو لا تُثمر، وكان يُستعمل في الطب، وكذلك كمسواك للأسنان (أبو حنيفة الدينوريّ، كتاب النبات، تحقيق: محمد حميد الله (القاهرة، 1973م)، اللوحات: 574، 686، مادة «شحس»، وعُتم». وقارن التوزيع في غضنفر وفيشر، الغطاء النباتيّ، Ghazanfar and Fisher, *Vegetation*, 91-93, 130، مع الإشارة إلى الاستخدام الطبيّ في ص250).

18 يلزم الأمر إلى أسبوعين في درجات حرارة أقل من 14 درجة مئويَّة (57 درجة فهرنهايت) من أجل تحفيز بعض الإزهار في معظم الأصناف (بي شيفر وبي سي أندرسن (محرران)، دليل الفسيولوجيا البيئيَّة لمحاصيل الفاكهة، B. Schaffer and P. C. Andersen (eds), *Handbook of Environmental Physiology of Fruit Crops* (Boca Raton, Fl., 1994), i, 171)، ولكن درجات الحرارة الباردة مطلوبة للمحاصيل الجديرة بالاهتمام. وتتحدث منظمة الأغذيَّة والزراعة عن فترة سكون مدتها حوالي شهرين مع متوسط درجات حرارة أقل من 10 درجات مئويَّة (50 فهرنهايت) (www.fao.org/ag/agVaglw/cropwater/olive.stm)؛ وتحدد إحدى الشركات في كاليفورنيا أفضل درجات الحرارة في فصل الشتاء بأنها تتراوح بين -2.8 إلى -3.9 درجة مئويَّة (25 إلى 27 درجة فهرنهايت)، بينما نادرًا ما تنخفض إلى أقل من -6.1 درجة مئويَّة (21 فهرنهايت). وتُوصف المناطق التي تصل درجات الحرارة فيها إلى 12.2 درجة مئويَّة (54 درجة فهرنهايت)، والتي نادرًا ما تتجمد أو تصل إلى -2.2 درجة (28 درجة فهرنهايت)، بأنها غير مناسبةٍ أو هامشيَّةٍ لبساتين الزيتون التجاريَّة («إمدادات مزرعة الوادي السلميَّة» على www.Groworganic.com/d/d3_205.html).

19 أدنى درجات الحرارة المسجلة في مكة والمدينة المنورة خلال إحدى عشرة سنة 1985-1995 كانت 10 درجاتٍ مئويَّةٍ (50 درجة فهرنهايت) و3 درجاتٍ مئويَّةٍ (37 درجة فهرنهايت) على التوالي. (كانت درجات الحرارة القصوى 49.5 درجة (121 درجة فهرنهايت) و47.5 درجة (18 درجة فهرنهايت)، بمتوسط 30.8 درجة (87 درجة فهرنهايت) و27.9 درجة (82 درجة فهرنهايت) على التوالي). انظر الرسم البيانيّ في غضنفر وفيشر، الغطاء النباتيّ، Ghazanfar and Fisher, *Vegetation*, 22.

20 كانت أدنى درجات الحرارة في الطائف والجوف، في الفترة المذكورة في الهامش السابق، -1.2 درجة مئويَّة (30 درجة فهرنهايت) و-7.0 درجة (19 درجة فهرنهايت) على التوالي. (كانت أعلى درجةٍ 39.5 درجة (103 درجة فهرنهايت) و46.0 درجة (117 درجة فهرنهايت)، بمتوسط 22.9 درجة (73 درجة فهرنهايت) و21.2 درجة (70 درجة فهرنهايت) على التوالي). ولمزيد من المعلومات بشأن زيتون الجوف؛ انظر: «خريطة المملكة العربيَّة السعوديَّة» الخريطة على www.scf.use.edu/~muzain/itp104/project/introduction.htm.supplementary result. ولسوء الحظ، فإن أ. م. مجاهد، نباتات السعوديَّة، ii (الرياض، 1989)، ص74، والذي يُوضح أن الزيتون الأوروبيّ مزروعٌ في السعودية؛ ويُعطي التوزيع للصنف البريّ، فحسب.

21 راجع: كرون، تجارة مكة، Crone, *Meccan Trade*, 104, 139؛ وهيك، «الجزيرة العربيَّة بلا بهارات»، Heck, "Arabia without spices", 573 (يُصور المكيين الذين يحملون النفط من سُوريَة على متن قافلة الجمال كنسخة مُبكرةٍ من «شركة النفط المتنقلة»). ويرتبط الزيتون، أيضًا، بسُوريَة في الدينوري، كتاب النباتات، أ-ي، تحقيق: ب. لوين، وأوبسالا وفيسبادن (جامعة أوبسالا أرسكريفت) 1953، رقم 466، مادة «زيتون».

كان ما تفعله قريش قبل الإسلام؛ فقد كانوا في المقام الأول تُجارًا. ولن يُحاول المرء تحويل سماسرة الأوراق الماليَّة في مانهاتن من خلال اللعب على مخاوفهم بشأن مشاريعهم الفرعيَّة أو استحضار روائع المنتجات التي شاهدوها في رحلاتهم التجاريَّة، بل يُمكن للمرء أن يتحدث إليهم عن انهيار سوق الأوراق الماليَّة، والكساد، والبطالة، والخراب الماليّ، وانعدام القيمة المُطلقة لحياة مُكرسةٌ للسعي وراء الثروة. ومع مراعاة ما يقتضيه اختلاف الحال؛ فمن الواضح أن هذا ما يفعله الداعيَّة القرآنيّ، أيضًا، فهو يُخاطب الناس الذين كانت سُبل عيشهم في بساتينهم وحقولهم، وهو يفعل ذلك بمقدارٍ هائلٍ من التفاصيل المحليَّة التي تُظهره أنه في منزله في هذا الوسط نفسه: (**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ**) (سورة الأنعام، الآية 141)؛ و(**وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ**) (سورة الرعد، الآية 4)[22]؛ وتُروى جميع المساحات المجاورة وبساتين العنب وأشجار النخيل والحقول بمصدرِ مياهٍ واحدٍ (سورة الرعد، الآية 4)؛ وكانت الحدائق، في بعض الأحيان، وربما بشكلٍ دائم، محاطةً بأشجار النخيل، والتي تفصل بينها حقولٌ مزروعةٌ وقنواتٍ (سورة الكهف، الآية 32، وما بعدها)؛ ومن بين جميع الكوارث التي يُمكن أن تُصيب قطعة أرضٍ؛ كان الكابوس النهائيّ في أن تغور المياه تحت الأرض ولا يُمكن استردادها (سورة الكهف، الآية 41). وكانت هناك مفرداتٌ غنيَّة تتعلق بالنخيل، بالإضافة إلى مصطلحات البرسيم، وأوراق أو سيقان الحبوب، والقش، والحدائق ذات الأشجار الكثيفة (**جَنَّاتٍ أَلْفَافًا**) (سورة النبأ، الآية 16)، وأكثر من ذلك[23].

2. السفر في البر والبحر:

ومع ذلك، لم تكن الزراعة النشاط الاقتصاديّ الوحيد الذي مارسه المُشركون؛ فكما أنهم سافروا برًّا وبحرًا، ربما بغرض التجارة؛ فهناك إشارةٌ غامضةٌ إلى (**رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ**) في الآية 2 من سورة قريش، وإشارة غامضة، أيضًا، إلى الأشخاص الذين ظلموا أنفسهم بسؤال الله مسافاتٍ أطول بين رحلاتهم: (**رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا**)، سورة سبأ، الآية 19. ولا يُمكن للمرء معرفة ما إذا كانت هذه الرحلات تمت عن طريق البر أو البحر، ولكن من فوائد الأنعام أنها (**وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ**) (سورة النحل، الآية 7). كما أن الرحلات البريَّة هي ما يتبادر إلى الذهن عندما يخبرنا الله: (**جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ**) (سورة النحل، الآية 80)؛ على الرغم من أن الكُفار كانوا ينامون في الخيام عندما وصلوا إلى وجهتهم عن طريق البحر، أيضًا، وكثيرًا ما يسأل القرآن الكُفار: (**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**)، أو أنه يأمرهم بذلك (سورة النحل، الآية 36؛ وسورة النمل، الآية 69؛ وسورة الروم، الآيتان 9، 42؛ وسورة غافر، الآية 82؛ وسورة محمد، الآية 10؛ وراجع: سورة الحج، الآية 46).

22 كما هو الحال، في كثير من الأحيان، مع المصطلحات التقنيَّة؛ يتم تقديم تفسيرات وترجمات مختلفةٍ. والنقطة الرئيسة هنا هي طبيعتها التقنيَّة.

23 واينز، «الزراعة»، Waines, ‘Agriculture’, 41f.

إن الإشارات إلى الإبحار والبحر عديدةٌ وحيويَّةٌ (مما يُوحي بأن النَّبيّ قد ذهب إلى البحر، كما ذكرنا من قبل)[24]. ولم يركب الناس على الماشية فحسب؛ بل، أيضًا، على متن السفن (سورة المؤمنون، الآية 22؛ وسورة غافر، الآية 80؛ وسورة الزُخرف، الآية 12)، وكانوا يهتدون بالنجوم في ظلمة البر والبحر (سورة الأنعام، الآية 97؛ وراجع، أيضًا، سورة يونس، الآية 22). وليُذكرهم الله أنه أرسل الرياح: (**لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه**) (سورة الروم، الآية 46)، و(**وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيه وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه**) (سورة النحل، الآية 14؛ وسورة فاطر، الآية 12)؛ و(**رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه**) (سورة الإسراء، الآية 66)، وكما تقول الآيات الأخرى (راجع، أيضًا، سورة الحج، الآية 65؛ وسورة لقمان، الآية 31). وعندما كان الأشخاص المخاطبون يتعرضون لعواصف في البحر؛ كانوا يدعون الله وحده؛ لكنهم كانوا يشركون به عندما يصلون إلى اليابسة (سورة يونس، الآية 22، وما يليها؛ وسورة العنكبوت، الآية 65؛ وسورة لقمان، الآية 32)؛ ويُقارن الكُفار بالبشر في الرحلات البريَّة والبحريَّة، على حد سواء، في سورة مدنيَّة: (**أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ # أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا**) (سورة النور، الآية 39، وما يليها).

وربما كانت بعض هذه الرحلات تجاريَّةً بطبيعتها. ومن المؤكد أن عبارة (**أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ**) تبدو تعبيرًا عن التجارة في بعض المقاطع (راجع سورة البقرة، الآية 198؛ وسورة الجمعة، الآية 10، التي تمت مناقشتها أدناه)، ولكن على نقيض الانطباع الذي كثيرًا ما ينقله التراث الثانويّ؛ فإن القرآن لا يربط أيًا من هذه الرحلات بالتجارة[25]. ربما يكون بعض التنقل في الأرض مرتبطًا بالمرعى، ويبدو أن الرحلات عن طريق البحر، أحيانًا، تكون لصيد الأسماك؛ ولذلك جاء في آية: (**سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيه بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه**) (سورة الجاثية، الآية 12)، وفي آية أخر يقول: (**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا**) (سورة النحل، الآية 14). وينبغي أن نتصور المُشركين، إذن، على أنهم أكلةً للسمك، ويُزينون أنفسهم بالأصداف البحريَّة، أو ربما (كما يقترح المفسرون) باللؤلؤ. وفي مكانٍ آخر، يُوصف المجتمع بأنه يستخدم منتجات كل من المياه العذبة والمالحة: (**وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه**) (سورة فاطر، الآية 12). وإنها لفكرةٌ مذهلةٌ أن المكيين كان يتعين أن يكونوا صيادين، ناهيك عن أن يأكلوا أسماك المياه العذبة؛ على الرغم من أن قد يُعتقد بذلك أنه قد تم حل إشكاليته. فأي نهرٍ أو بحيرةٍ يُمكن أن

---

24 تشارلز كاتلر توري، المصطلحات التجاريَّة اللاهوتيَّة في القرآن، C. C. Torrey, *The Commercial-Theological Terms in the Koran* (Leiden, 1892, 2n 27)؛ ولمزيدٍ من التعمق؛ فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد، «القرآن والبحر»، W. W. Barthold, "Der Koran und das Meer", *Zeitschrift der Deutschen Morgenliindischen Gesellschaft*, 1929.

25 ويزعم توري أن سورة قريش «قد تكون كلمات تاجر لأصحابه، يدعوهم فيها إلى الاعتراف بخير الله في رخاء قوافلهم الشتويَّة والصيفيَّة» (المصطلحات، *Terms*, 2)، ويرى هيك، أيضًا، أن «القرآن «يتحدث عن قوافل تجاريَّةٍ سنويَّةٍ إلى اليمن وسُوريَة» («الجزيرة العربيَّة بلا بهارات»، Arabia without spices", 572"). ولكن هذا مجرد تفسير بسيط للآية الثانية من سورة قريش، وهو تفسيرٌ واحد، فقط، من بين العديد من التفسيرات (راجع: كرون، تجارة مكة، Crone, *Meccan Trade*, 205ff.).

يكون المقصود به في هذا المقطع؟ هناك مثلٌ عن الصيادين في القرآن: (**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ**) (الأعراف: 163)، ولكن قد يعتبر المرء أن هذه القصة تدور حول اليهود، وربما موجهة إليهم، أيضًا؛ رغم أن هذه السورة مُصنفةٌ على أنها مكيَّة.

3. التجارة:

تأتي الإشارة الصريحة الوحيدة إلى التجارة في السور المكيَّة في شكل تحذيرات ضد الغش في الأوزان والمكاييل. وقد وضع الله الميزان (**أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ # وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**) (سورة الرحمن، الآية 7[/8]، وما بعدها)، ويتلوه مقطعٌ؛ يُشير إلى خلق الله للنخيل والحبوب والريحان، ويقول في آية أخرى: (**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ**) (سورة الإسراء، الآية 35)؛ و(**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ**) (سورة الأنعام، الآية 152). وقد ورد أن شعيب يقول الشيء نفسه تقريبًا (سورة الأعراف، الآية 85؛ وسورة هود، الآية 84 وما يليها؛ وسورة الشعراء، الآية 181)، و(**الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ # وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**) (سورة المطففين، الآيات 1-9). قد يأخذ المرء هذه التحذيرات للإشارة إلى التبادلات الداخليَّة بدلًا من التجارة مع الغرباء، ناهيك عن التجارة لمسافاتٍ طويلةٍ. وهناك إداناتٍ مماثلةٍ للغش بالمكاييل والأوزان في العهد القديم، حيثما يكون الوضع زراعيًا.

إن الجو الزراعيّ السائد في السور المكيَّة هو كل ما هو أكثر غرابةً من حيث إن لغة النَّبيّ مليئةً بالاستعارات التجاريَّة منذ البداية، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بالثواب والعقاب[26]. ويُنظر إلى البشر على أن الله سيُحاسبهم ويُجازيهم حسب أعمالهم المرصودة في كتابٍ مبينٍ لا يغفل عن شيءٍ (سورة يونس، الآية 61؛ وسورة الكهف، الآية 49؛ وسورة الأنبياء، الآية 94؛ وسورة سبأ، الآية 3؛ وسورة يس، 12؛ وسورة الجاثية، الآية 28، وما بعدها؛ وسورة النبأ، الآية 29؛ وراجع: (**كِتَابٌ حَفِيظٌ**)، في الآية 4 من سورة ق). ويُنظر إلى كل نفسٍ على أنها رهينةٌ لله؛ أي كضمانٍ للديون التي تراكمت عليها (سورة المدثر، الآية38، وراجع: سورة الطور، الآية 21)[27]، وتُوصف الأعمال، أيضًا، بأنها تُقدم إلى الله يوم القيامة: (**هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ**) (سورة يونس، الآية 30؛ وسورة الحاقة، الآية 24). وفي يوم الحساب سيلاقي كل فردٍ دفتر حساباته، أو ستلاقي كل أمةٍ سجلها (سورة الجاثية، الآية 28، وما يليها). وسيُؤتى الأبرار كتابهم في أيديهم اليمنى، والخُطاة في أيديهم اليسرى أو من الخلف (بطريقةٍ غير مزعجة يستخدمها الدائنون) (سورة الحاقة، الآيتان 19، 25؛ وسورة الانشقاق، الآية 7، وما يليها؛ وراجع، أيضًا، سورة الواقعة، الآية 8، وما بعدها)[28]، وسيُطلب من الجميع قراءة سجلاتهم بصوتٍ عالٍ (سورة الحاقة، الآية 19؛ وسورة الإسراء، الآية 13، وما بعدها: (**اقْرَأْ كِتَابَكَ**؛ وتعتبر معرفة القراءة والكتابة أمرًا مفروغًا منه. وفي استعارةٍ بديلةٍ: توزن النفوس؛ فينجح من

26 فيما يتعلق بهذا؛ انظر: توري، المصطلحات، Torrey, *Terms*, 8ff..

27 في الآية 21 من سورة الطور، يبدو أن كل إنسان رهينٌ، بمعنى معهودٌ أن الله سوف يُجازيه مقابل أعماله الصالحة.

28 ومن هنا جاء تعبير أصحاب اليمين في الآية 39 من سورة المدثر، حيث كل نفسٍ رهينة)**إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ**(.

ثقلت أعمالهم في الميزان، ويخسر من خفت أعماله (سورة المؤمنون، الآية 102، وما يليها؛ وسورة الأعراف، الآية 8، وما بعدها؛ وسورة القارعة، الآية 5). وعلى خلاف المُشركين، يستخدم الله الموازين العادلة (سورة الأنبياء، الآية 47)، ويُعطي الكيل كاملًا، سواءً أكان ثوابًا أم عقابًا: (**تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ**)[29]. وبصرف النظر عن هذه الاستعارات الشائعة الاستخدام؛ ينصح أحد المقاطع بعدم بيع ميثاق الله مقابل ثمنٍ زهيد (سورة النحل، الآية 95؛ وقارن التعبير المُستخدم للبيع الحرفيّ في قصة يوسف: سورة يوسف، الآية 20)، ومقطعٌ آخر يتحدث عن من يشتري الحكايات الباطلة (سورة لقمان، الآية 6)، ولكن الاستعارات المتعلقة بالبيع والشراء كثيرةً، وأكثر شيوعًا في السور المُصنفة على أنها مدنيَّة[30].

ومن حيث المبدأ، كان من الممكن أن تُشكل هذه الاستعارات، ببساطةٍ، جزءًا من اللغة الدينيَّة الموروثة؛ لأن معظمها موثقٌ قبل ظهور الإسلام، وفي بعض الحالات حتى في الشعر العربيّ[31]. ولكن استخدامها في السور المكيَّة متسقٌ وحيويٌّ للغاية؛ لدرجة أن للمرء أن يفترض أنها تعكس الظروف الراهنة، أو، على الأقل، ماضٍ تجاريٍّ قريبٍ[32]. ومع ذلك، فإن المعاملات التجاريَّة، الواردة فيها، قد تكون داخليَّةً، إلى حدٍ كبير، أو كليًّا.

4. مجتمع المُشركين: خلاصة

وبشكلٍ عام، فإن الآيات القرآنيَّة، المُوجهة إلى المُشركين أو المعنيَّة بهم، تأخذنا إلى اقتصادٍ مُختلطٍ؛ تم الجمع فيه بين زراعة الحبوب والعنب والزيتون والنخيل مع تربية الأغنام والماعز والإبل والأبقار والثيران وغيرها من الحيوانات. وكذلك مع النشاط البحريّ، على الأقل جزئيًا في صيد الأسماك. وكان المجتمع متمايزًا بما يكفي للتبادلات الداخليَّة، وربما كانت هناك تجارةً خارجيَّةً، أيضًا، ولكن ليس على نطاقٍ مهم بدرجة كافية حتى يُحاول الداعية أو الواعظ جذب قلوب المُشركين عبر هذا الموضوع. لم يُوصف اللهُ، أبدًا، بأنه يُعاقب الناس بإفساد المشاريع التجاريَّة، أو السماح بنهب القوافل أو دفنها في العواصف الرمليَّة، ولا توجد أمثالٌ عن التجارة في القرآن. ومع كل ذلك، تشهد الاستعارات على نظامٍ مُتطورٍ لحفظ الحسابات المكتوبة؛ مما يُشير إلى مجتمعٍ يتمتع ببعض التطور في جميع بيئته الريفيَّة. ويَفترض وجود مستوى عالٍ من معرفة القراءة والكتابة.

5. مجتمع المؤمنين:

يُمكننا، الآن، أن ننتقل إلى النصوص التي تُنظم سلوك المؤمنين بطريقةٍ تُظهر أنهم قد توصلوا إلى تكوين مجتمعٍ؛ إن لم يكن، بالضرورة، مُجتمعًا مُستقلًا سياسيًّا. وقد سبق أن واجهنا بعض هذه المقاطع: فهي تُشير،

29 توري، المصطلحات، Torrey, *Terms*, 22f., 32f.، مع استعاراتٍ أخرى تتعلق بالوزن في الصفحة15.

30 عندما يُطلق على يوم القيامة (**يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ**) (سورة إبراهيم، الآية 31، ومرةً أخرى في السورة المدنيَّة: البقرة، الآية 254)؛ فإن المعنى يبدو أنه لن يكون هناك فداءٌ أكثر من أنه لن يكون هناك بيعٌ ولا شراء (توري، المصطلحات، Torrey, *Terms*, 42).

31 توري، المصطلحات، Torrey, *Terms*, 9f.

32 توري، المصطلحات، Torrey, *Terms*, 13f.

ضمنًا، إلى أن المؤمنين كانوا مزارعين مثل المُشركين، ولكن هذا ليس ما يفعله كلهم؛ إذ يصف عددًا لا بأس به من أولئك المؤمنين، وكلهم، تقريبًا، من سكان المدينة المنورة، بأنهم تُجار.

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ**) (سورة النساء، الآية 29)، ويُعلن أن التجارة شيءٌ طيبٌ. ولأجل ذلك؛ ينبغي أن يتذكر المؤمنون أنه لا شيء أهم من الله ورسوله: (**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**) (سورة التوبة، الآية 24)، ويصف المؤمنين المثاليين بأنهم: (**رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ**) (سورة النور، الآية 37). ولكن هذا أكثر مما يُمكن أن يُقال عن أكثرهم: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ # فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ # وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**) (سورة الجمعة، الآيات 9-11). وفي مكانٍ آخر، نسمع عن مؤمنين يسيرون في الأرض؛ يبتغون من فضل الله (سورة الجمعة، الآية 10)، وعلى الأرجح أنهم تجارٌ[33]. وقال في شأن مواسم الحج: (**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ**) (سورة البقرة، الآية 198)، وهنا يُمكن، أيضًا، قراءة المقطع على أنه يُشير إلى التجارة (وهكذا قرأه المفسرون، أيضًا)، إذ لا يُمكن أن يكون هناك العديد من الطرق الأخرى لتحقيق الكسب أثناء الحج. وكان يتم إيداع الذهب، في بعض الأحيان، لدى أهل الكتاب: حيث كان بعضهم يُعيد، بأمانة، قنطارًا كاملًا مودعًا لديه، بينما يرفض آخرون إعادة دينارٍ واحدٍ ما لم يُصر صاحبه على استعادته؛ مدعيًا الآخر أنه ليس لديه أية التزاماتٍ أخلاقيَّةٍ تجاه غير اليهود (سورة آل عمران، الآية 75).

وبالتالي، فلا يُساورنا أدنى شكٍ في أن المؤمنين كانوا يعملون في التجارة، بل كانوا منشغلين بها. وتمشيا مع هذا؛ فهناك قدرٌ لا بأس به من تنظيم المعاملات التجاريَّة. وقد أحل الله البيع والشراء، وحَرّم الربا (سورة البقرة، الآية 275، وما بعدها)، ومع أن المؤمنين لهم حقٌ في رؤوس أموالهم؛ إلا أنهم يجب أن يرفقوا بأهل المدينة المنورة، ويتوقوا يومًا، حيث (**تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ**) (سورة البقرة، الآيات 279-281). واستحب للناس إذا اقترضوا المال أن يكون لهم كاتبٌ يدون العقد كما يمليه المدين أو من ينوب عنه، ويشهد عليه رجلان، أو رجلٌ وامرأتان؛ ومن الأفضل أن تكون كل المعاملات التجاريَّة مكتوبة؛ إلا إذا تمت على الفور، وينبغي أن تكون مشهودةً، سواء أكانت مكتوبةً أم غير مكتوبةٍ (سورة البقرة، الآية 282)، ولكن إذا كان المؤمنون على سفرٍ ولم يجدوا كاتبًا؛ فالرهن سيفي بالغرض (بدلًا من السجل). ويجب إرجاع الوديعة إلى أصحابها (سورة

---

33 سورة المُزمل، الآية 20. وهذه السورة مكيَّة، ولكن كما تَظهر الإشارة إلى الحرب المقدسة؛ فإن النهاية موجهةٌ إلى أعضاء المجتمع الناشط سياسيًّا. كما تختلف نهاية السورة عن الجزء السابق من السورة؛ بعدم وجود أي قافيةٍ. فجميع أقسام الآيات في القرآن تترك المقطع بأكمله كآيةٍ واحدةٍ طويلةٍ بشكلٍ لافتٍ للنظر (راجع: أنطوان سبيتالير، عدد آيات القرآن، A. Spitaler, *Die Verszählung des Koran, Munich*, 1935, 66؛ وأنا مدينة بهذه الإشارة إلى ميخائيل كوك Michael Cook).

البقرة، الآية 283). وعلى عكس تنظيم طقوس الحصاد والأوامر المتعلقة بالأوزان والمقاييس العادلة؛ تم وضع هذه القواعد، دون جدال، ضد الطرائق الوثنيَّة لفعل هذه الأشياء.

وهناك، أيضًا، الكثير من الصور التجاريَّة في السور المدنيَّة، التي تتعلق، في الغالب، بالبيع والشراء بدلًا من المحاسبة[34]. ويُستخدم الكثير منها ضد اليهود والمُشركين، الذين يُقال إنهم يبيعون آيات الله أو يتعاقدون مقابلها بثمنٍ قليلٍ، أو يتم تحذيرهم من القيام بذلك (سورة البقرة، الآية41؛ وسورة آل عمران، الآية 187؛ وسورة المائدة، الآية 44؛ وسورة التوبة، الآية 9؛ وراجع: السورة المكيَّة: النحل، الآية 95)، أو المدح على عدم القيام بذلك (سورة آل عمران، الآية 199)، أو الذين يكتمون الوحي أو يختلقونه ليبيعوه بثمنٍ زهيدٍ (سورة البقرة، الآية 79، 174)، أو الذين يبيعون إيمانهم أو أنفسهم بهذا الثمن البخس (سورة البقرة، الآية 90، 102؛ وسورة آل عمران، الآية 77)، أو شراء الدنيا بالآخرة (سورة البقرة، الآية 86)، وهم وآخرون يشترون الضلالة أو الباطل بالهدى، أو الكفر بالإيمان (سورة البقرة، الآية 16؛ وسورة آل عمران، الآية 177، وسورة النساء، الآية 44؛ وراجع، أيضًا، سورة المائدة، الآية 106). وعلى النقيض من ذلك، فهناك أناسٌ يبيعون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله (سورة البقرة، الآية 207)؛ لا سيما أولئك الذين يبذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله: (**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ**) (سورة النساء، الآية 74)؛ و(**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ**) (سورة التوبة، الآية 111)، أو (**هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ # تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**) (سورة الصف، الآية 10، وما بعدها): إن تكريس ثروة المرء و/أو حياته له؛ أصبح، الآن، بمثابة قرضٍ؛ سيُعيده الله مُضاعفًا: (**إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ**) (سورة الحديد، الآية 18؛ وسورة المُزمل، الآية 20[35])، و(**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ # مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً**) (سورة البقرة، الآية 244، وما بعدها)، و(**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ**) (سورة الحديد، الآية11؛ وسورة التغابن، الآية 17)، و(**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**) (سورة الأنفال، الآية 60). ويوصف المؤمنون الجالسين على الحياد بأنهم يتاجرون بالسوء مع الله: (**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ**) (سورة البقرة، الآية 16). وعلى النقيض من ذلك: (**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ**) (سورة فاطر، الآية 29)[36].

---

34 تم ملاحظة هذا التحول من قِبل توري، المصطلحات، Torrey, *Terms*, 35.

35 للاطلاع على زمن الآية 20 من سورة المُزمل؛ انظر، أعلاه، الهامش33

36 سورة المُزمل مُصنفةٌ على أنها مكيَّة، ولكن هذه الآية، على وجه التحديد، تعكس وضع مجتمع من المؤمنين (دون افتراض المسبق للاستقلال السياسيّ).

7. الخاتمة:

إن القرآن غنيٌّ جدًا بالمعلومات حول سُبل عيش كلٍ من المُشركين والمؤمنين، ولكن النتيجة محيرة، فيصف القرآن الجماعتين بأنهما يعيشان معًا في مجتمعٍ يعتمد، بشكلٍ كبيرٍ، على الزراعة، بينما يُصور المؤمنين، كذلك، على أنهم يُشكلون مجتمعًا خاصًا بهم، حيثُ تكون التجارة مهنةً بارزةً. وبعبارةٍ أكثر فظاظة، فهو يصف المُشركين بالمزارعين والمؤمنين بالتجار: والوضع هو على النقيض ما يتوقعه المرء. ولا ينبغي أن يكون من الصعب التوفيق بين صورة مجتمع المؤمنين، الواردة في القرآن، وصورة المدينة النبويَّة المُقدَّمة في مصادر أخرى، ولكن وصف القرآن للمجتمع الذي يتقاسمه المُشركون والمؤمنون؛ لا يُمكن أن يُوحي أنه بمكة، كما نعرفه من الروايات. فإلى أين نذهب من ذلك؟ لا أريد أن أُثقل هذه الورقة بالتخمين؛ لذلك أترك، ببساطة، هذا السؤال للقارئ.

شكرٌ وتقدير:

أنا ممتنة لميخائيل كوك على تعليقاته على هذا المقال.

قائمة المصادر والمراجع:

أولًا: المصادر والمراجع باللغة العربيَّة

1. البكريّ، معجم ما استعجم، تحقيق: فرديناند فيستنفيلد (لايبزيغ، 1858م).

2. ابن حبيب، المنمق (حيدر أباد، 1964م).

3. الدينوريّ، أبو حنيفة، كتاب النبات، تحقيق: ب. لوين، وأوبسالا وفيسبادن (جامعة أوبسالا أرسكريفت) 1953

4. ___، كتاب النبات، تحقيق: محمد حميد الله (القاهرة، 1973م).

5. الرازيّ، فخر الدين، التفسير الكبير (طهران، 1413هـ).

6. الزمخشريّ، الكشاف (بيروت، 1947م).

7. الطبريّ، جامع البيان (بيروت، 1988م).

8. ابن قتيبة، المعارف، تحقيق: ثروت عُكاشة (القاهرة، 1969م).

9. ___، المعارف، تحقيق: محمد اسماعيل عبدالله الصاويّ (بيروت، 1970م).

10. ___، المعارف، تحقيق: ويستنفيلد (ليدن، 1850م).

11. مُقاتل بن سُليمان، التفسير، تحقيق: عبد الله محمود شحاتة (القاهرة، 1979م).

ثانيًا: المصادر والمراجع باللغات الأجنبيَّة

12. Barthold, W. W. “Der Koran und das Meer”, Zeitschrift der Deutschen Morgenliindischen Gesellschaft, 1929

13. Benthall, J. ‘Firstfruits in the Quran’, in A. I. Baumgarten (ed.), Sacrifice in Religious Experience (Leiden 2002) (following Décobert).

14. Crone, P. Meccan Trade and the Rise of Islam (Oxford and Princeton, 1987).

15. Ghazanfar and M. Fisher (eds), Vegetation of the Arabian Peninsula (Dordrecht, 1990).

16. Hawting, R., The Idea of Idolatry and the Emergence of Islam (Cambridge, 1999).

17. Heck, G. W. ‘ “Arabia without spices”: an alternate hypothesis’, Journal of the American Oriental Society 123, 2003

18. Kister, M. J. ‘Some reports concerning Mecca from J̄ahiliyya to Islam’, Journal of the Economic and Social History of the Orient 15

19. Kister, M. J. ‘Some reports concerning Ta’if, Jerusalem Studies in Arabic and Islam, i, 1979

20. Kister, M. J. ‘The Battle of the Ḥarra: some socioeconomic aspects’, in M. Rosen-Ayalon (ed.), Studies in Memory of Gaston Wiet (Jerusalem, 1977).

21. McAuliffe, J. D. (ed.) Encyclopaedia of the Qur’an, (Leiden, 2001), s.v. ‘arrogance’ (Nasr Abu Zayd).

22. Miles, G. C. 'Early Islamic inscriptions near Ta'if in the Hijaz', Journal of Near Eastern Studies 7, 1948).

23. Miller, A. G. and T. Cope, Flora of the Arabian Peninsula and Socotra, vol. i (Edinburgh, 1996).

24. Schaffer, B. and P. C. Andersen (eds), Handbook of Environmental Physiology of Fruit Crops (Boca Raton, Fl., 1994).

25. Spitaler, A. Die Verszählung des Koran, Munich, 1935

26. Torrey, C. C. The Commercial-Theological Terms in the Koran (Leiden, 1892, 2n).

27. Waines, D. 'Agriculture', in Encyclopaedia of the Qur'an, 40

28. Watson, A. M. Agricultural Innovation in the Early Islamic World (Cambridge, 1983).

29. Watt, W. M., 'Belief in a High God' in Pre-Islamic Mecca', Journal of Semitic Studies 16, 1971

ثالثًا: مواقع الشبكة العنكبوتيَّة

30. www. Groworganic.com/d/d3_205.html.

31. www.fao.org/ag/agVaglw/cropwater/olive.stm.

32. www.scf.use.edu/~muzain/itp104/project/introduction.htm.supplementary result.

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com